# ١ـ الإعجاز في السياق القرآني

ليس بجديد القول أن إعجاز النظم القرآني وخصوصيته التعبيرية تجلت في القرآن بعامة؛ فالقرآن معجز كله بلفظه ومعناه، يحمل في ذاته دليل إعجازه، راسماً القانون الإنساني الأعلى من خلال فصاحة ألفاظه، وإصابة معانيه، وجمال إيقاعه، وبُعد إيحاءاته، مما جعل بلاغة القرآن: «بلاغة أسلوب تبهر العقول، وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب»[١].

ولما كان هذا الأسلوب القرآني المعجز قد أعجز أرباب الفصاحة، وأساطين البلاغة عن محاكاة آية واحدة من آياته فإن هذا العجز البشري ـ في نظري ـ يستدعي فقه الإحاطة بكل جوانب إعجازه، مما يقتضي الوقوف عند بعض مواطن هذا الإعجاز، أو هذا النظم من خلال خصائصه: اللغوية، والصرفية، والبلاغية، تلك التي تآلفت في وحدة واحدة من التعبير.

---

(١) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط ٣ (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥١م)، ٣/١.

وعلى الرغم من أن هذه الخصائص التعبيرية: اللغوية والصرفية والبلاغية هذه قد تداخلت فيما بينها سواء في اللون الواحد، أو بينها مجتمعة، فقد رجحنا في تصنيفها الجانب الذي يتفق مع طبيعة الدراسة وهدفها، ومن هذه الخصائص:

**أ ـ خصائص لغوية:**

تعددت وتنوعت وجوه الصياغة اللغوية على صعيد السياق القرآني مبرزة آفاق المعجزة اللغوية الكبرى. ومن هذه السمات: دقة معاني الألفاظ القرآنية، التي وضعت القول الفصل لظاهرة «الترادف اللغوي» التي مثلت قضية شائكة بين علماء العربية شغلتهم ردحاً من الزمن، واختلفت مذاهبهم فيها. بيد أن استقراء السياق القرآني لمواضع الترادف اللفظي يجعل لكل كلمة خصوصية دلالية لا يقوم مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول بترادفها.

ومن الألفاظ المقول بترادفها: لفظي: «الزوجة» و«المرأة» أو بتحديد أدق «الزوج» «المرأة» تقول عائشة عبد الرحمن: «وترى البيان القرآني يستعمل لفظ «زوج» حينما يتحدث عن آدم وزوجه، على حين يستعمل لفظ «امرأة» في مثل امرأة العزيز، وامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون. وقد يبدو من اليسير أن

يقوم أحد اللفظين مقام الآخر، وكلاهما من الألفاظ القرآنية، فنقول في «زوج آدم» مثلا امرأة آدم... وذلك ما يأباه البيان المعجز»[1].

ثم تعلل عائشة عبد الرحمن مغزى الحكمة في تباين استخدام هذين اللفظين: «ونتدبر سياق استعمال القرآن للكلمتين فيهدينا إلى سر الدلالة: كلمة «زوج» تأتي حين تكون الزوجية هنا مناط الموقف: حكمة وآية، أو تشريعاً وحكماً؛ في آية الزوجية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم:٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) فإذا تعطلت آيتها من السكن والمودة والرحمة بخيانة أو تباين في العقيدة، فامرأة لا زوج: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ (يوسف: ٣٠)، ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ (التحريم: ١٠) «امرأة فرعون» وقد تعطلت آية الزوجية بينهما بإيمانها وكفره، (التحريم: ١١)

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م)، ص ٢١٢.

وحكمة الزوجية في الإنسان وسائر الكائنات الحية من حيوان ونبات هي اتصال الحياة بالتوالد، وفي هذا السياق يكون المقام لكلمة زوج... فإذا تعطلت حكمة الزوجية في البشر بعقم، أو ترمل، فامرأة لا زوج، كالآيات في امرأة إبراهيم (هود: ٧١) (الذاريات: ٢٩) وامرأة عمران (آل عمران: ٣٥).

وتوالي عائشة عبد الرحمن استقراء مواطن اختلاف الدلالة بين لفظتي «الزوج والمرأة» مبينة أن عنصر الإنجاب عامل آخر لاستخدام لفظ «الزوج» دون لفظ «المرأة» فتقول: «ويضرع زكريا إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٥)، ثم لمّا استجاب له ربه، وحققت الزوجية حكمتها كانت الآية: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ (الأنبياء: ٩٠). وفي آيات التشريع تتعلق الأحكام بالزوج والأزواج حين تكون الزوجية قائمة: واقعاً أوحكماً؛ كأحكام المواريث، وعدة اللواتي توفى أزواجهن (البقرة: ٢٣٤). أما حين تنقطع العلاقة الزوجية بطلاق أو إيلاء، فالأحكام متعلقة بالنساء لا بالأزواج»[1].

(١) المرجع السابق، ص ٢١٢ – ٢١٤.

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع تبين المعايير التي ينبغي توفرها حتى تحظى المرأة بلقب الزوجة، وهي: أن تكون العلاقة الزوجية قائمة بين الزوجين، وأن تكون هذه العلاقة قد توطدت بالتآلف الفكري والنفسي والحسي، وذلك بأن تكون قد أنجبت له، وعلى دينه، وذات وفاء له. فإن اختل عنصر واحد من هذه العناصر كانت «امرأة» لا «زوج».

ومع استقراء السياق القرآني الذي يشكل مرجعية دلالية تحسم قضية الترادف اللفظي ما نجده من تحديد مفهوم، «الأب» و«الوالد» فمفهوم الأب أعم وأشمل من الوالد؛ إذ يندرج في تضاعيفه معنى: الجد، العم، الأب الوالد، وهذا ما نلحظه في قوله تعالى حكاية على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة: ١٣٣).

فالأبوة هنا بمعناها الشامل تضمنت: الجد «إبراهيم» والعم «إسماعيل» والأب الوالد «إسحق».

ومن الألفاظ الأخرى التي نقف عند مؤداها الدلالي المحدد من السياق القرآني ما نجده في لفظتي «الواحد»، «الأحد»، فلفظة

«الأحد» تشع دلالتها في آفاق عدة تحدد خصوصيتها المعجمية: منها: أنها صفة من صفات الله تعالى في: ذاته، وصفاته، وأفعاله. وقد ورد لفظ «أحد» صفة من صفات الله جل جلاله مرة واحدة في القرآن الكريم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١). ومن خصوصية هذا اللفظ أنه يستوي فيه المذكر والمؤنث ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (الأحزاب: ٣٢) بخلاف الواحد فلا يقال «كواحد من النساء»، بل «كواحدة»[١].

وفضلاً عن ذلك فلفظ «الأحد» تنسحب دلالته على الإفراد والجمع ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ (الحاقة: ٤٧) إلى جانب أن هذا اللفظ يشتق منه صيغة للجمع، فيقال: «الآحدون» و«الآحاد» أما «الواحد» فلا جمع له من لفظه، إنما يقال: اثنان، ثلاثة، أربعة ... ألخ. غير أن لفظ «الواحد» قد يطلق على أكثر من شيء: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ (البقرة: ٦١)، وهم يقصدون بالطعام الواحد «المن والسلوى»، إذا كانوا يأكلون أحدهما بالآخر، ولذلك قالوا: طعام واحد[٢].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، (القاهرة: شركة سفير). ٥/٢٨١-٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ٥/٢٨٢.

**١ـ اختلاف الدلالة باختلاف بنية الكلمة:**

والسياق القرآني يعد المرجعية الدلالية للألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركة بنيتها اللغوية، وهذا الاختلاف رغم تعدده المعنوي يلتقي حول الجذر اللغوي للكلمة؛ من هذه الكلمات التي وردت بمعانٍ عدة، كلمة «الجنة» التي شكلت مثلثاً دلالياً تراءى بفتح الجيم، وكسرها، وضمها، علماً بأن الجذر اللغوي «جنَّ» يدور حول الغطاء والستر.

ولدى تأمل هذا التعدد الدلالي «للجنة» بدءاً من فتح الجيم، فنجدها تأتي بمعنى دار النعيم التي أعدها الله لعباده المتقين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الزخرف: ٧٢). وتأتي أيضاً بعنى الحديقة ذات النخل والشجر: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (القلم: ١٧) وكلتا الجنتين تضمنتا معنى الستر والغطاء لكثرة الأشجار وكثافة الأغصان، و«الجنة» ـ بكسر الجيم ـ تدل على عالم الجن مقابل عالم الإنس: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٦) كذلك تدل على عالم الملائكة ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (الصافات: ١٥٨). وذلك لاستتار الجن والملائكة عن الأنظار. كما أن الجِنة ـ بكسر الجيم ـ تدل على الذي أصابه الجنون فحجب عقله ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ (المؤمنون: ١٧).

ويرد معنى «الجُنة» بضم الجيم ليدل على الستر والوقاية على سبيل التعبير المجازي ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المنافقون: ٢) أي اتخذوا أيمانهم ستراً وغطاءً لنفاقهم ليوهموا بصدق اعتقادهم.

## ٢ ـ البعد الدلالي للمشترك اللفظي:

ويطلعنا السياق القرآني على ضرب آخر من التنوع اللفظي، وهو ما يطلق عليه المشترك اللفظي، الذي تنهض فيه اللفظة بمعان عدة، وهذا النوع أطلق عليه علماء الدراسات القرآنية «النظائر»، «وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر»[1]. ومن هذه الألفاظ التي أوردها السيوطي في كتابه: الإتقان في علوم القرآن، «الهدى» حيث جاءت على سبعة عشر وجهاً:

- بمعنى الثبات: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦).
- والبيان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ (البقرة: ٥).
- والدين: ﴿إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٣).

---

(١) السيوطي، الإتقان، ١٤١/١.

- والإيمان: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ (مريم: ٧٦).

- والدعاة: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء: ٧٣).

- وبمعنى الرسل والكتب: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ (البقرة: ٣٨).

- والمعرفة: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦).

- وبمعنى النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ (البقرة: ١٥٩).

- وبمعنى القرآن: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٣).

- والتوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ (غافر: ٥٣).

- والاسترجاع: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٧).

- والحجة: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨) بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي لا يهديهم حجة.

- والتوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ (القصص: ٥٧).

- والسنة: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠) ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢).

- والإصلاح: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٢).

- والإلهام: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: ٥٠).

- والتوبة: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

- والإرشاد: ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (القصص: ٢٢)[1].

ومن تعدد المعاني للكلمة الواحدة؛ الصلاة، وتأتي على عدة أوجه:

- الصلوات الخمس: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ (البقرة: ٣).

- وصلاة العصر: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ (المائدة: ١٠٦).

- وصلاة الجمعة: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ (الجمعة: ٩).

- والجنازة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ (التوبة: ٨٤).

- والدعاء: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

- والدين: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ (هود: ٨٧).

- والقراءة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ (الإسراء: ١١٠).

---

(١) المصدر السابق، ١٤٢/١.

- والرحمة والاستغفار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

- مواضع الصلاة: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ (الحج: ٤٠) ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (النساء: ٤٣)[1].

ومن الكلمات القرآنية ذات المعاني المتعددة: «الأمة» وتأتي وفق معان عدة، منها:

- الدين ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ (الزخرف: ٢٢) وقيل: لا أمة له: أي لا دين له.

- وكل جيل من الناس أمة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (البقرة: ٢١٣).

- والإمام المقتدى به: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠).

- وجماعة العلماء: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

- وفترة زمنية ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥) أي بعد حين[2].

---

(١) المصدر السابق، ١/١٤٢.

(٢) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٦هـ)، ١/٢٧-٢٨.

### ٣ ـ ألفاظ جديدة أحدثها نزول القرآن:

ويطلعنا السياق القرآني على ألفاظ لم يسبق استخدامها قبل نزول القرآن، حيث دعت الرسالة المحمدية لظهور ألفاظ تواكب الحياة الجديدة، مما أوجد نوعاً من التجديد اللفظي في اللغة، يقول محمد المبارك: «من الألفاظ ما هو جديد في استعماله للمعنى الذي استعمل له، «كالحاقة» و«القارعة» و«الواقعة» وكلها ألفاظ معروفة من حيث اشتقاقها، ولكنها جديدة في إطلاقها على معنى يوم القيامة.. وكذلك لفظ «الحساب» فقد استعمل في السورة بمعنى حساب الإنسان على أعماله في الحياة الدنيا لا بالمعنى العام..»[١].

وإلى جانب الألفاظ التي استخدمها القرآن الكريم في معان جديدة كانت هناك ألفاظ ابتدأها التعبير القرآني ابتداءً مثل: «الفرقان، الكفر، الإيمان، الإشراك، الإسلام، النفاق، الصوم، الزكاة، التيمم، الركوع، السجود، وغير ذلك من ألفاظ الدين الحنيف... »[٢]. وكل ذلك بفضل القرآن الكريم فهو الذي حفظ العربية من الضياع.. وثاني آثاره أنه حوّل العربية إلى لغةِ ذات دين سماوي باهر»[٣].

---

(١) محمد المبارك، دراسة لنصوص من القرآن، ط٤ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م)، ص ٤٥.
(٢) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ط ٦، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م) ص٣٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٢.

## ب. خصائص صرفية:

شكلت الخصائص الصرفية المسار الثاني في إطار مبحث السياق القرآني، إذ شكلت مع الخصائص اللغوية ركيزة معرفية مشتركة لبيان خصوصية النظم القرآني وتعميق مقاصده، ومن هذه السمات ما نجدها قد كشفت عن أبعاد معرفية تنظّم حياة المجتمع المسلم من خلال:

### ١ ـ الدور الوظيفي للجمع والإفراد:

حققت بعض صيغ الجموع بعداً دلالياً جسدت قانون التكافل الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وذلك من خلال تتبع صيغة جمع «أخ» في السياق القرآني؛ فهذه الصيغة نجدها قد جُمعتْ على «إخوة» و«إخوان» وكل واحدة نهضت بمؤدى دلالي خاص؛ فصيغة «إخوة» أبانت عن أخوة الدم والنسب: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ (يوسف: ٥٨)، ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ (النساء: ١١).

أما صيغة «إخوان» فنهضت بمعنى أخوّة المبدأ والمنهج، حتى وإن كان المتآخون من جنس مختلف: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ (الإسراء: ٢٧).

ومع هذه الخصوصية لكلتا الصيغتين نجد أن أخوة الهدف والمنهج ترقى وتتسامى إلى مصافّ أخوة النسب، فيصبح إخوان الدين أخوة في النسب: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، ووفق هذا المبدأ الأخوي يجد المؤمن الحق أن المسلمين كُلهم رحمٌ له عندما يسلسل أنسابهم. ومصداق ذلك أن مريم البتول عندما جمعتها مع هارون صفة الصلاح والتقوى، ناداها القرآن: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ (مريم: ٢٨) مع أن بينهما أجيالاً؛ هارون من عهد موسى عليهما السلام، ومريم البتول والدة عيسى عليهما السلام.

والسياق القرآني يطلعنا على لون آخر من الصياغة الصرفية لصيغتي الإفراد والجمع، مما يفصح عن مآل الابتعاد عن المنهج الرباني، وأثر ذلك على كيان المجتمع المسلم، من ذلك ما نجده في إفراد «النور» وجمع «الظلمات» وإفراد «الحق» وجمع «الباطل»، وهذا المغزى الدلالي يبينه لنا صاحب محاسن التأويل: «وتأمل كيف قال تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ (البقرة: ١٧) فوحّده، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ فجمعها، فإن الحق واحد: هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه... بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة؛ ولهذا يفرد الله سبحانه «الحق» ويجمع «الباطل»،

كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣) فجمع سبل الباطل، ووحّد طريق الحق[1].

## جـ. خصائص بلاغية:

مثلت أدوات الصياغة البلاغية المسار الثالث للنظم القرآني في ثنايا مبحث السياق القرآني العام، وقد تآزرت مع نظيرتيها: اللغوية والصرفية، لتشكل أرضية مشتركة لخصوصية التعبير القرآني وأثرها في الإفصاح عن أهداف الكتاب الكريم، ومن هذه السمات البلاغية:

### التوظيف الدلالي للذكر والحذف:

ونتلمس هذه السمة البلاغية في إسناد الخيرات للمنعم، وحذف الفاعل في مقابلتهما[2]؛ فنجد في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧) وقد أضاف النعمة للمنعم، وحذف فاعل الغضب في ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧).

---

(١) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م) ٢/٦٢.

(٢) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد فقي، (مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٦م). ١/١٢.

ويعلل العلامة ابن قيم الجوزية علة هذا التوظيف البلاغي: «إن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام، والعدل والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما»[1].

ويشير ابن القيم على ورود هذه السمة في مواضع أخرى من السياق القرآني وفق هذه الخصوصية الدلالية، منها ما جاء على لسان مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٠) ومنه قول الخضر في شأن الفتية: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (الكهف: ٧٩) وقوله في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ (الكهف: ٨٢) وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ (المائدة: ٣)، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ (النساء: ٢٣)، ثم قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ (النساء: ٢٤)[2].

(١) المرجع السابق، ١٢/١.

(٢) المرجع السابق، ١٢/١.

ولدى تلمس هذه السمة البلاغية في مواضع أخرى من السياق القرآني نجدها قد ترددت على لسان أبي الأنبياء إبراهيم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ (الشعراء: ٧٨-٨١)، فقد أسند إبراهيم عليه السلام لله سبحانه الصفات الخيرة: الخلق، الهداية، الإطعام، الإسقاء، الشفاء، الموت، الإحياء، في حين نسب إليه ما ليس بمستحب: «المرض»، وهذه السمة البلاغية قد جسدت لنا صورة من خُلُقْ الأنبياء، وأبانت عن منهج القرآن في تربية النفس الإنسانية، في الإقتداء بخلق الأنبياء؛ بالتزام الأدب مع الله سبحانه؛ فالشر لا ينسب إليه أدباً، وإن كان منه تقديراً.